

د. منى بنت سالم الجابرية
أستاذ مساعد - جامعة التقنية والعلوم
التطبيقية بنزوى
muna_jabri.niz@cas.edu.om

الاستفهام في القرآن الكريم في ضوء العلاقة بين طرفي الخطاب

الملخص:

إن المخاطب ينتقي الألفاظ، وينظم العبارات والتراكيب، ويختار الأساليب المناسبة في العملية التخاطبية، بناء على العلاقة التي تربطه بالمخاطب، سواء كانت إيجابية، مبنية على الترفق، والتلطف، واللين، والمودة والاحترام، أو سلبية قوامها الشدة، والجفاء، والمحاجة، والوعيد، والتهديد، والتنافر، والاختلاف في وجهات النظر ... إلخ. ويمكن القول إن نجاح العملية التخاطبية، وتحقيق الأهداف المرجوة منها، معتمد بشكل أساس على قدرة المخاطب في أن يجعل خطابه متوافقاً، ومنسجماً، ومعبراً عن هذه العلاقة، فيتسم باللين واللفظ في مقام الترفق، بينما يتخذ طابع الشدة والجفاء في مقام التوتر والتنافر بينه وبين المخاطب. ويُعد الاستفهام من الأساليب التي من الممكن استعمالها في النوعين من المقامات، فيعين المخاطب على تقديم الصورة الأنسب للتعبير عن علاقته بالمخاطب، وإيصال رسالته إليه، ومن جهة أخرى فإن الاستفهام من الأساليب التي بإمكان المحلل أن يستند عليها للكشف عن العلاقة بين طرفي الخطاب، خاصة إذا ما دُرس في مشاهد حية كما هو الحال في مشاهد القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: الترفق، الجفاء، الأهداف، قُدرة، المحلل.

The question in the Quran in light of the relationship between the two parties of discourse

Mona Salem Al Jabriya

Abstract:

The person being addressed selects the words, organizes the phrases, sentence structures, and chooses the appropriate methods in the process of performing the conversation.

All of this is based on the relationship that takes place between the person being addressed and the person communication with him, whether the communication is positive and based on kindness, softness, affection and respect. Or it was the opposite of that in a negative way, and the nature of the conversation was intensity, estrangement, argument, threat, disharmony, difference in opinions and viewpoints...etc. It can be said that the success of the communication process and achieving its intended goals depend mainly on the ability of the person being addressed to make his speech compatible, harmonious and expressive of this relationship.

While it takes the character and style of severity and estrangement in the place of tension and disharmony between the person addressed and the addressee

Interrogative is one of the methods that can be used in the previous two types of denominator

With this question, the addressee will help the addressed to provide an appropriate method to express his relationship with the addressee and to

convey the meanings of the message to him.

On the other hand, the interrogation is one of the methods that the researcher and analyst can rely on in revealing the relationship between the two sides of communication, especially if it is taught in the style of live observation, as it is in the case of the Holy Qur'an.

Key words: Kindness, disharmony, goals, ability, and analysis.

المقدمة:

الاستفهام أسلوب تحاوري، له حضوره في القرآن الكريم، إذ تتنوع العلاقات بين أطراف التخاطب، وهذه العلاقات قد تتخذ طابع اللين والترفق كما قد تتخذ طابع التوتر والشدة.

مشكلة البحث وأهدافه

يهتم هذا البحث بالاستفهام في القرآن الكريم، في ضوء العلاقة بين طرفي الخطاب، ويبحث في استعماله في مقامات تتميز بالإيجابية المبنية على الترفق، والتلطف، والود، والاحترام المتبادل بين طرفي الخطاب، ومقامات أخرى تتسم بالتوتر، والشدة، والتنافر بينهما؛ لتبين ما يتميز به هذا الأسلوب من سمات تدفع المخاطب ليؤثره في مقامات بعينها دون غيره من الأساليب، بالإضافة إلى قدرته على تصوير العلاقات بين طرفي الخطاب.

أهمية البحث

إن النظر إلى استعمال هذا الأسلوب في ضوء العلاقة بين طرفي الخطاب من الأهمية بمكان، حيث يُسهم في الكشف عن طبيعة العلاقة بينهما، كما أنه يُبرز ما يتميز به هذا الأسلوب من خواص تجعل المخاطب يؤثره على غيره في مقامات بعينها في ضوء علاقته بالمخاطب، والطريقة الأنسب التي يريد أن تصل بها رسالته إليه.

الدراسات السابقة

تناولت دراسات سابقة الاستفهام في القرآن الكريم من زوايا متنوعة، وجوانب مختلفة، فقد كان مجالاً خصباً للاستشهاد في كتب القدماء من نحاة وبلاغيين، كما تعرض له المفسرون في تفسيرهم للقرآن الكريم. ومن الدراسات السابقة التي اختلفت بالاستفهام في القرآن الكريم:

١- المطعني، عبد العظيم، (٢٠١١م). التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم. (ط٣)، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر. هذا الكتاب عبارة عن دراسة بيانية بلاغية للاستفهام في القرآن الكريم.

٢- يوسف، عبد الكريم محمود. (٢٠٠٠م). أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم؛ غرضه-إعرابه، (ط١)، مكتبة الغزالي، دمشق، سوريا. ركز على جانبين في دراسته للاستفهام في القرآن الكريم هما: المعنى الذي أفادته الأداة، وإعرابها في العبارة التي ترد فيها.

٣- الجابرية، منى سالم عامر. (٢٠١٧م). الاستفهام في القرآن الكريم بين التأثير والتأثير، (ط١). نشر مشترك بين دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ومكتبة وتسجيلات الطلائع، إبراء، سلطنة عمان.

وكما يبدو من عنوان الدراسة أنها قد ركزت في تناولها للاستفهام على جانبين هما: استعماله في التعبير عن مكنونات نفسية؛ حيث يعبر به المتكلم عن مشاعره وأحاسيسه، بالإضافة إلى استعماله في التأثير على المخاطب من الناحيتين: النفسية الوجدانية، والفكرية الإدراكية. وقد تبين لاحقاً وجود زاوية أخرى، يمكن من خلالها النظر إلى هذا الأسلوب، تتمثل في تصويره للعلاقة القائمة بين طرفي الخطاب من جهة، وفي الطريقة التي يؤثر بها في المخاطب؛ هل هي مبنية على التلطف والترفق، أم هي قائمة الشدة والعنف؟، وهذا مجال هذا البحث ونطاقه.

منهج البحث

سيتم الاعتماد على المنهج الوصفي لتتبع نظرة القدماء حول أغراض الاستفهام وربطها بالعلاقة القائمة بين طرفي الخطاب، وكذلك المنهج التحليلي القائم على عرض الآيات القرآنية وتحليلها في ضوء أهداف البحث، وعرض مشاهد تتنوع فيها العلاقات بين أطراف التخاطب، بما يخدم فكرة البحث ويبلورها.

إطار البحث وتقسيماته:

سينتكون البحث من مقدمة، وخمسة مباحث، وخاتمة، سيُعنى المبحث الأول بتقديم تعريف موجز عن الاستفهام، وسيهتم المبحث الثاني بالحديث عن أغراضه في ضوء العلاقة بين طرفي الخطاب، بينما يعرض المبحث الثالث آيات قرآنية استُعمل فيها الاستفهام في مقامات تتسم بالترفق والتلطف، وسيُعنى المبحث الرابع بعرض آيات تتوتر فيها العلاقة بين طرفي الخطاب، أما المبحث الخامس فستتم فيه المقارنة بين مشاهد استُعمل الاستفهام فيها، وتبرز الخاتمة أهم النتائج.

1 - تعريف الاستفهام

استفهام: من «فَهَمَّ» ارتبط معناه في معاجم اللغة بالعلم والمعرفة يقول الخليل (١٧٤هـ): «فَهَمْتُ الشَّيْءَ فَهَمًّا وَفَهْمًا: عَرَفْتُهُ وَعَقَلْتُهُ»، (الفراهيدي، دت، مادة: فهم)، وهو على صيغة «استفعال» التي تُستعمل «للدلالة على الاستدعاء والطلب» (الثعالبي، ١٩٩٩م: ص ٢٨٤. وابن جني، ١٩٥٤م: ج ١، ص ٧٧).

ويُصنف الاستفهام في البلاغة العربية ضمن الأساليب الإنشائية الطلبية. (القزويني، ١٩٩٣م: ج ٣، ص ٥٥. وابن الناظم، دت: ص ٨٣)، عرّفه الشريف الجرجاني (٨١٦هـ) بقوله: «الاستفهام استعمال ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن»، (الجرجاني، ١٩٩٦م: ص ١٨). وبناءً على ذلك، فإن هذا الأسلوب يهدف في الأصل إلى حصول المستفهم (المخاطب) على المعرفة والفهم، التي يطلبها حول المستفهم عنه من المخاطب (المستفهم)، الذي من المفترض أنه يمتلكها، أو يُتوقع منه امتلاكها، ويكون قادرًا على تقديمها له.

2 - أغراض الاستفهام في ضوء العلاقة بين طرفي الخطاب.

الاستفهام من الأساليب الغنية بمعانيها التداولية، فهو يؤدي وظائف كثيرة ومتنوعة

في الحدث التخاطبي، وقد أكد القدماء على كثرة هذه الوظائف وتنوعها، ومنهم السكاكي (٦٢٦هـ) في مفتاح العلوم، (١٩٨٧: ص ٤١٧)، والقزويني (٧٣٩هـ) في الإيضاح في علوم البلاغة، (١٩٩٣م: ج ٣، ص ٦٨)، والسبكي (٧٧٣هـ) في عروس الأفراح، (٢٠٠٣م: ج ١، ص ٤٥١)، والتفتازاني (٧٩٢هـ) في المطوّل في شرح تلخيص المفتاح، (١٣٣٠هـ: ص ٢٣٥، و ص ٢٣٨-٢٣٩)، وفي مختصر السعد، (٢٠٠٣م: ص ٢٠٥). فمن ذلك قوله في المطوّل: «والحاصل أن كلمة الاستفهام، إذا امتنع حملها على حقيقته، تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام، ولا ينحصر المتولدات فيما ذكره المصنف، ولا ينحصر أيضاً شيء منها في أداة دون أداة، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق، وتتبع التراكيب، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته، أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه» (التفتازاني، ١٣٣٠هـ: ص ٢٣٨: ٢٣٩). إنه في هذا النص يشير إلى أن القدماء قد حددوا صورة نموذجية للخطاب الاستفهامي الذي يكون الغرض منه طلب المعرفة والفهم، تقوم في الأساس على حاجة المستفهم لهذه المعرفة حول المستفهم عنه، فيتقدم من خلال الاستفهام بطلبها من المستفهم (المخاطب)، فإذا ما انحرف الخطاب عن هذا النمط، وخالف هذه الصورة، تحوّل عن غرضه الأساس إلى أغراض أخرى، تتلون بتلون الخطاب المستعمل فيه. ونظراً لكثرة المقامات التخاطبية وتنوعها، فإن المعاني التي تتولد عن الاستفهام لا حدود لها، ولا تقتصر على صورة معينة، فهي كثيرة ومتنوعة بتنوع المقامات التخاطبية، حيث يكتسب شحنة دلالية في كل مقام يُستعمل فيه، وذلك بما يناسب الظروف الحافّة بالحدث التخاطبي، والعلاقة بين المخاطب والمخاطب، فكلما تتوّعت هذه الظروف والعلاقات بينهما، اكتسب الاستفهام شحنة دلالية جديدة، ويمكن القول إن الكثير من المعاني التي ذكرها القدماء للاستفهام، تدور في فلك هذه العلاقات.

ويمكن تصنيف هذه العلاقات إلى فئتين: ما يُبنى على الانسجام والتلطف والترفق واللين، وما يقوم على التوتر والمواجهة والشدة والعنف بين طرفي الخطاب. فمن الأول قول سيبويه (١٨٠هـ): «إذا نهيت فأنت تزجيه إلى أمر، وإذا أخبرت

أو استفهمت فأنت لست تريدي شيئاً من ذلك، إنما تُعلمُ خبراً أو تسترشدُ مُخبراً» (سيبويه، دت: ج ١، ص ٢٨٩)، إن سيبويه في هذا النص يفرق بين ثلاثة أساليب في توجيه المخاطب لطلب الكف عن القيام بالفعل، فيضع النهي -وهو الأسلوب المستعمل في الأساس للنهي- في كفة والذي عدّه أسلوباً صريحاً ومباشراً لذلك، بينما وضع الخبر والاستفهام في كفة أخرى؛ لأن بهما يُطلب منه الكف عن الفعل بطريق غير مباشر. إن قوله: «تزجّيه» يشير إلى أن المخاطب بالنهي يمارس سلطة على المخاطب ف«الترجية: دفع الشيء» (الخليل، دت: مادة: رَجَو. وابن منظور، ١٩٩٨م: المادة نفسها) و«زجاه ساقه ودفعه»، (الفيروز آبادي، ١٩٩٨م: المادة نفسها)؛ لأن الأصل في النهي أن يكون على جهة الإلزام، فبه يدفع المخاطب مَنْ يخاطبه للكف عن القيام بالفعل، وفي ذلك شيء من الشدة أو إشعار بالسلطة عليه، لكن مع الاستفهام، فإنه يضع نفسه في هيئة المسترشد الباحث عن الإجابة، الذي يؤخذ بيده إلى المعرفة والفهم، فلا يشعر المخاطب بالشدة أو الإلزام كما هو الحال مع النهي، وهو يرسل له رسالة للكف عن الفعل، لا يظهر فيها بأنه يمارس سلطة عليه، وفي هذا ترفق وتلطف به، ومراعاة لمشاعره النفسية.

وما جاء به سيبويه فيما يتعلق بأسلوب النهي، ينسحب كذلك على استعمال الاستفهام في توجيه الأمر إلى المخاطب لطلب القيام بالفعل بتلطف وترفق، عوض الأمر الصريح والمباشر؛ وذلك لما يتميز به هذا الأسلوب من قوى تأثيرية قد يكون الأنسب من غيره في مقامات بعينها، فمن المعلوم أن توجيه الأمر أو طلب الكف عن الفعل إنما يكون - في الأصل- من الأعلى إلى الأدنى وهو يأتي بطريق الإلزام، ولكن في بعض المقامات لا يملك المخاطب السلطة ليوجه المخاطب لأمر ما بطريق مباشر، أو إنه يملكها لكنه لا يريد أن يستعملها لما في ذلك من تلطف بالمخاطب وترفق به.

ومن جهة أخرى فإن الاستفهام قد يعكس شدة التوتر بين طرفي الخطاب حيث يستعمله المخاطب لتوبيخ المخاطب وتقرّيعه يقول سيبويه (١٨٠هـ): «تقول للرجل:

أطرباً؟ وأنت تعلم أنه قد طرب، لتوبخه وتقرره» (سيبويه، دبت: ج ٣، ص ١٧٦). إن الاستفهام في هذا المثال لا يقيس عدم فهم المخاطب للمستفهم عنه وإنما يصور التوتر الشديد بين طرفي الخطاب، فالغرض منه توبيخ المخاطب وتقريره بالجرم الذي اقترفه، وإظهار عدم رضاه عن فعله وعدم موافقته له. يقول عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): «اعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذي هو محض المعنى: أنه لتنبية السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع ويعي بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على ما لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له: فافعل، فيفضحه ذلك، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا رُوجع فيه تنبّه وعرف الخطأ، وإما لأنه جَوَز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه قَبِح على نفسه وقيل له: فأرنا في موضع وفي حالٍ وأقم شاهداً على أنه كان في وقت» (الجرجاني ١٩٩٢م: ص ١١٩: ١٢٠). في هذا النص يستعمل المخاطب الاستفهام؛ لإظهار عدم رضاه عن المخاطب وعدم تقبله لفعله، فيكشف عن العلاقة القائمة بينهما وإنهما غير متوافقين، مما يقيس مدى التوتر بينهما، حيث يُظهر عدم رضاه بطريق الشدة والعنف، فيحاصر المخاطب باستفهامه، ليشعره بالخجل والعجز عن الإجابة.

وبذلك يتضح أن في حديث القديس عن أغراض الاستفهام، وإيثاره دون غيره من الأساليب في العملية التخاطبية، يتجلى دور الاستفهام في الأخذ بيد المخاطب بلطف وترفق، أو مواجهته بشدة وعنف. وسيعنى المبحث التالي باستعمال الاستفهام في تصوير علاقة المستفهم بالمستفهم، وبيان دوره في العملية التخاطبية، من خلال مشاهد حية من القرآن الكريم، وذلك في ضوء علاقتي: التلطف بالمخاطب، والمواجهة الشديدة بينهما.

3 - الاستفهام في مقامات تتسم بالتلطف والترفق

3-1 الاستفهام في نهى الله - عز وجل - المؤمنين بتلطف وترفق

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ) [سورة المائدة: ٩٠ - ٩١]، يخاطب الله - سبحانه وتعالى- في هذه الآيات المؤمنين به، وقد ترفق بهم في حثهم على الامتناع عن: (الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ) وقد كانت هذه المنهيات راسخة في ثقافة مجتمعهم، خاصة الخمر التي كانوا يفاخرون بها، لذلك لم تحرم عليهم دفعة واحدة، وإنما مر تحريمها بثلاث مراحل: المرحلة الأولى: يمثلها قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا) [سورة البقرة: الآية ٢١٩]، حيث اكتفي ببيان كونها إثم كبير، أما المرحلة الثانية من التحريم، فيمثلها قوله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) [سورة النساء: الآية ٤٣]، حيث نهوا عن الصلاة وهم سكارى، بينما تمثل الآيات التي بين أيدينا المرحلة الثالثة من التحريم، التي نهوا فيها بأمر صريح، ولكن برغم ذلك فإن هذا النهي قد جاء بترفق بهم، وهذا ما تؤكد دلائل عدة في هذه الآيات منها:

نداء الإيمان الدال على علاقة الامتثال والطاعة واليقين بالله عز وجل، فقد ناداهم ب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، وهذا يلقي - في بداية الخطاب- بظلال من المعاني العميقة حول العلاقة بين طرفي الخطاب، فالنداء بهذه الصفة فيه تكريم للمخاطبين، وهو يصور تعلقهم به؛ إذ من المعلوم أن هذه الفئة من الناس تسارع إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، فقد استحضرت هذه العلاقة في مستهل خطابهم، لتكون حاضرة في تلقي الخطاب القائم على الإيمان به.

ومن جهة أخرى، قد بُني الخطاب في النهي وفق خطوات؛ ليكون الانتهاء عن اقتناع وإدراك، وليس الإلزام القسري بجفاء وشدة؛ حيث سبق نهيم عنها بيان لسلبياتها، وإنما لا تعدو أن تكون مجرد رجس من عمل الشيطان قال تعالى: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)، ومن ثم صدر

النهى الصريح بأسلوب النهي في قوله: (فَاجْتَنِبُوهُ)، أتبعه بيان لنتيجة الانتهاء حيث قال: (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، تلاه بيان لمضارها على الفرد والمجتمع في قوله: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ)، وأخيراً الاستفهام عن الاتصاف بالانتهاء حيث قال: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ).

والجدير بالذكر هنا إن الزمخشري (٥٣٨هـ) في كشافه، عدّ الاستفهام في هذه الآية من أبلغ ما ينهى به، وذلك في قوله: «(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تُزجروا؟» (الزمخشري، ٢٠٠١م: ج ١، ص ٧٠٨). إن نص الزمخشري يشير إلى أنه يُقدر استفهاماً آخر يردف الاستفهام في الآية الكريمة، وكذلك نظر البقاعي (٥٨٨٥هـ) إلى الاستفهام فيها على أنه مستعمل في تهديد المخاطبين، فقدّر تنمة للاستفهام في الآية الكريمة هي: «قبل أن يقع بكم ما لا تطيقون»، (البقاعي، ٢٠١١م: ج ٢، ص ٥٣٧). وكذلك أبو السعود (٩٨٢هـ) حيث قال: «(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)، إيداناً بأن الأمر في الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من المفساد والشور قد بلغ الغاية، وأن الأعداء قد انقطعت بالكلية» (أبو السعود، ٢٠١١م: ج ٢، ص ٥٣٩).

وفي الحقيقة إن تقدير الزمخشري للاستفهام الذي أردف قوله تعالى: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)، لا يتناسب مع المقام الذي استعمل فيه الاستفهام، والذي يبدو أن القول بالزجر في هذه الآية، أو التهديد والوعيد، قد جاء مبنياً على ما دُكر من ضررها ووصفها بالرجس في قوله تعالى: (رَجِسُ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)، وفي الحقيقة لا يمكن الأخذ بذلك؛ لأن الزجر قد لا يكون مراداً، وإنما تم ذكر ضررها على جهة التنبيه والإرشاد، فالزجر إنما يكون للمعاند الذي لا يمتثل لما يؤمر به، وهو لا يكون في المرحلة الأولى من توجيه الأمر المباشر والصريح، ولا يكون لمن آمن وامتنل، مما يؤكد النداء بصفة الإيمان، وهذا يُثبت أن المقام ليس مقام زجر،

وإنما تلتطف وجميع المعطيات لا تشي بالزجر، و لا تظهر فيها النبرة الشديدة، أو التهديد والوعيد، وإنما التلطف والترفق بالمخاطبين، ابتداءً بندايم بنداء الإيمان به – سبحانه وتعالى- وانتهاء بالاستفهام. أضف إلى ذلك إن التأمل في السياق الذي وردت فيه هذه الآيات، يؤكد كون الخطاب في الآيات خطاب توجيه وإرشاد، وليس على جهة التهديد والوعيد، فقد ورد في مقام تبيان وتعدد ما يحل للمؤمنين وما يحرم عليهم من قول وطعام...إلخ. كما لم يذكر في السياق ما يشير إلى أن المؤمنين قد خالفوا أوامر الله –سبحانه وتعالى-ليستحقوا التهديد والوعيد.

وللرازي (٥٦٠٤) رأي حول الاستفهام في هذه الآية، وذلك في قوله: «اعلم أن هذا وإن كان استفهامًا في الظاهر إلا إن المراد منه هو النهي في الحقيقة، وإنما حسن هذا المجاز لأنه تعالى ذم هذه الأفعال وأظهر قبحها للمخاطب، فلما استفهم بعد ذلك عن تركها لم يقدر المخاطب إلا على الإقرار بالترك، فكأنه قيل له: أتفعله بعدما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر»، (الرازي، دبت: م ٦، ج ١٢، ص ٧٠: ٧١).

إن ما قاله الرازي في هذا النص فيه نظر، فقد ورد النهي باجتنابها بأسلوب النهي الصريح (فَاجْتَنِبُوهُ) قبل الاستفهام، والمؤمن لا يملك خيارًا إلا الامتنال والطاعة تجاه هذا الأمر الصريح. وقد جاء الاستفهام بصيغة (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)، أي «هل أنتم فاعلون؟» وليس بـ «أنتنهنون؟» / «أتفعلون؟» أو «هل تفعلون؟»، فصيغة الاستفهام التي ذكرها الرازي لا تتماشى مع الخطوات التي بُنيت عليها الآية الكريمة، فقد جاء الاستفهام في الآية بعد أن ناداهم بنداء الإيمان، وبين لهم مضارها ونهاهم عنها، فبعد هذا لن يسألهم أتفعلون أم لا؟، فلو جاء بهذه العبارة، لركز الاستفهام على قيامهم بالفعل من عدمه، ولكنه اتخذ منحى آخر هو التركيز على ذات الفاعل «أنتم» واتصافه بالانتهاء فقال: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) «هل أنتم فاعلون» أي متصفون بالانتهاء، وفي هذا تلتطف بالمخاطب وترفق، وأخذ بيده ليكون من زمرة المتصفين بالانتهاء الثابتين على ذلك. فقد نُفِّروا من خلال ذكر الصفات السلبية للخمر والميسر، ومن ثم أمروا باجتنابها، مما يؤدي إلى سرعة

الامتثال، وبعد ذلك طُلب منهم أن يحددوا موقفهم تجاهها من خلال الاستفهام، فليس المراد من الاستفهام نهيم عنها بعد أمرهم باجتنابها، وإنما إعلان موقفهم. وهذا ما أكده ابن عاشور في قوله: «فإن ما ظهر من مفسد الخمر والميسر كاف في انتهاء الناس عنها، فلم يبق حاجة لإعادة نهيم عنها، ولكن يُستغنى عن ذلك باستفهامهم عن مبلغ أثر هذا البيان في نفوسهم؛ ترفيعاً بهم إلى مقام الفطن الخبير، ولو كان بعد هذا البيان كله نهاهم عن تعاطيها، لكان قد أنزلهم منزلة الغبي، ففي هذا الاستفهام من بديع لطف الخطاب ما بلغ به حد الإعجاز» (ابن عاشور، محمد الطاهر، د.ت: م ٤، ج ٧، ص ٢٧). إن قوله هذا يشير إلى فهم دقيق للاستفهام في هذه الآيات، والذي يبدو إنه قد بنى تحليله للاستفهام على الاستراتيجية التي بُني عليها الخطاب، فقد عُدَّت لهم مضار الخمر والميسر، ومن ثم نُهوا عنها، فلا حاجة لنهيم عنها مرة أخرى، وإنما استُفهِمَ عن مدى امتثالهم لما نُهوا عنه بعدما علموا من شأنه، وما جاءهم من نهي صريح عنه. وفي الاستفهام حث لنفوسهم على الامتثال بأسلوب لطيف، لذلك عدّه ابن عاشور «من بديع لطف الخطاب»، فالمستفهم قد خُوطب خطاب من وعى وفهم المضار، لتتحرك نفسه وتنشط لتأكيد امتثاله بالإجابة بـ«نعم نحن منتهون»، فهو ينتمي إلى فئة مخصوصة تتميز بإيمانها بالله عز وجل. فكأن الاستفهام هنا يقيس مدى تأثر المخاطبين بما ذُكر من مفسد الخمر والميسر ومضارهما، وسرعة امتثالهم للأمر باجتنابها، خاصة إن النهي قد جاء مقرونًا بذكر الفلاح في قوله: (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، إنه خطاب العليم بالنفوس والخبير بمدخلها.

3 - 2 الاستفهام في دعوة يوسف -عليه السلام- صاحبيه في السجن

قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: (يَا صَاحِبَيَّ السِّجْنِ أَرَأَيْتَ أَزْرَابًا مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [سورة يوسف: الآية ٣٩] إنه -عليه السلام- في هذا المشهد يخاطب الرجلين السجينين معه بهدف دعوتهما إلى عبادة الله - عز وجل- وترك عبادة الأصنام، والذي يبدو إن الجو النفسي للمشهد هو ترفق وتلطف من

كلا الطرفين، فقد بدأه بالخطاب قال تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِينًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [سورة يوسف: الآية ٣٦]. فقد عدَّاه من المحسنين، وأكداه له نظرتهما الإيجابية إليه، وفي هذا شيء من الألفة والاستئناس به، أضف إلى ذلك إنهما سجينان، وفي وضع يحتاجان فيه إلى التلطف، وهما لا يملكان أي سلطة أو تسلط أو جبروت، ولم يبديا أي تعصب لدين، أو ملة، أو معبود، مما يُلمس في مشاهد أخرى توجه فيها الرسل بالدعوة إلى أقوامهم، وقد تكون عبادتهما لغير الله - عز وجل - من باب الجهل بالمعبود الحق، أو من باب انتهاج نهج المجتمع، مما يعني إنهما بحاجة إلى إرشاد للطريق السليم والتوجيه إليه.

لقد سار يوسف - عليه السلام - في خطابه وفق خطوات تعكس تلطفه في دعوتهما، وأخذه بأيديهما بلين وترفق، فقد وعدهما بأنه سينبئهما بما سألاه عنه، ومن ثم أخبرهما عن وجود ملة ينتهجها غير ملة الشرك قال تعالى: (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) [سورة يوسف: الآية ٣٧]، وبعد ذلك ناداهما مع أن التوجه بالخطاب كان مغنياً عن النداء، فهو في خطاب قائم معهما، والنداء إنما يكون لطلب إقبال المخاطب وتنبيهه قبل الشروع في الخطاب، والملاحظ إن هذا النداء إنما جاء قبل الاستفهام مباشرة، وكأنه لأهمية الاستفهام الذي سيوجهه إليهما سبقه بالنداء؛ لينتبهها ويركزا في الاستفهام وما يليه من خطاب، أضف إلى ذلك إن هذا النداء فيه ما فيه من الإيناس والترفق، فقد ناداهما بنداء الصحية «صاحبي»، وهذا النداء في هذا الموضع من الخطاب، وبهذه الصيغة، ينسجم مع الجو العام للخطاب القائم على التلطف والترفق، ويأتي الاستفهام ليؤكد على العلاقة القائمة بين الطرفين.

وقد كان بإمكانه ألا يكلفهما عناء البحث عن الإجابة، فيستعمل الأسلوب الخبري

من نحو: إن الله الواحد القهار خير من أرباب متفرقين، خاصة إنه قد أخبرهما في بداية خطابه معهما بوجود ملة تعتمد على إخلاص العبادة لله عز وجل، لكنه أثر الاستفهام لما يتميز به عن الأسلوب الخبري، يقول أبو حيان (٧٤٥هـ): «أورد الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله: (أَرْبَابٌ)، فأبرز ذلك في صورة الاستفهام؛ حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام» (أبو حيان، ٢٠٠٥: ج٦، ص٢٧٨). إن هذا النص يشير إلى أن الاستفهام، يعمل على إيصال الخبر إلى المخاطب بطريق غير مباشر، فلا يصدمه بالمعلومة والحجة المباشرة كما هو الحال مع الأسلوب الخبري، وإنما يتيح له مجال التفكير فيها والبحث عنها وكأنها نابعة منه، وهو مشارك فيها، وليست مفروضة عليه، أو تم تلقيه إياها. ومن جهة أخرى، فإن الأصل في الأسلوب الخبري أنه يعمل على تقديم المعلومة في هيئة قالب جاهز، بينما يحوّل الاستفهام المخاطب من متلقٍ للخبر إلى باحث عنه ومشارك في تحديده. أضف إلى ذلك إن الاستفهام يهيئ المخاطب لتلقي المعلومة بإيقاظ ذهنه واستثارته للتفكير، وفي هذا كله تلمظ وترفق به، وأخيرًا فإنه لو صاغ كلامه على هيئة خبر لاحتل كلامه التصديق والتكذيب بينما الاستفهام لا يحتمل ذلك.

وبتأمل صياغة استفهامه -عليه السلام- يتضح إنه يمهّد به لنسف التوجه بالعبادة لغير الله -سبحانه وتعالى- بالاستدراج اللطيف، فقد صاغه على طريقة الاختيار من بين بديلين محددين سلفًا هما: أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ وَاللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

وقد جعل إحدى الكفتين راجحة على الأخرى، فقد وصف المعبودات التي يعبدوها قومهما بأوصاف تدل على الضعف، وعدم الانسجام، فهم «أرباب» و«متفرقون»، فأرباب جمع ولكنه غير متحد أو متماسك وإنما متفرق، وهذا قادم في قوتها. فمن المعلوم أن التفرق لا يؤدي إلى القوة، وإنما ينشي بالتشتت والضعف، فلا جدوى من الاحتماء بالمتفرقين. وهو بذلك ينبههما إلى ضعف آلهتهما، ويوجههما إلى التفكير في أهم صفاتها القادحة في اصطفائها للعبادة. وفي الوقت نفسه يعرض

عليهما بديلاً عن عبادتها؛ وهو التوجه إلى الله وحده، وقد اختار اسم الجلالة «الله» الدال على الألوهية، وهذا الاسم من الأسماء المتفرد بها. أما «الواحد» فيدل على الوحدانية وعدم المشاركة، بينما يشير «القَهَّار» إلى القهر، والغلبة، والقوة التي لا تدانيها قوة، فهو على وزن «فَعَّال»، من صيغ المبالغة، يقول ابن فارس (٣٩٥هـ): «القاف، والهاء، والراء كلمة صحيحة تدل على غلبة وعلو» (ابن فارس، ٢٠١٢م: مادة: قَهَرَ). وقال الأصفهاني (٥٠٢هـ): «القهر الغلبة والتذليل معاً» (الأصفهاني، دبت، مادة: قَهَرَ). فصاحب الفطرة السليمة لن يختار عبادة الضعيف، أو يؤثرها على عبادة القوي المتفرد القَهَّار. فهو باستفهامه يوقض نفسيهما لاختيار المعبود الحق عن اقتناع بترفق وتلطف، دون أن يفرض ذلك عليهما فرضاً.

3-3 الاستفهام في دعوة إبراهيم - عليه السلام - أبيه

قال تعالى: (وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) (سورة مريم، الآيات ٤١: ٤٢)، لقد سلك إبراهيم - عليه السلام - في دعوته لأبيه أطف السبل لإقناعه بالدول عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله - عز وجل - وقد كان للاستفهام دوره البارز في تحقيق هذا الهدف. ويمكن القول إن المشهد في هذه الآيات من بدايات دعوته - عليه السلام - لأبيه وقومه قبل أن يضيق ذرعاً بإصرارهم على الشرك، حيث يخلو خطابه من النبوة الحجاجية الحادة التي قد نلمسها في المشاهد الأخرى من دعوته.

ففي هذا المشهد استهل - عليه السلام - خطابه بالنداء، أتبعه باستفهام، حيث تعانق الاستفهام والنداء، فالنداء تنبيه للمخاطب وطلب لإقباله، والاستفهام تنبيه للفكر، ودعوته للبحث والتفكير والتأمل. فأبوه في توجهه بالعبادة لغير الله - عز وجل - غارق في غفلة قلبية وغفلة فكرية، منصرف عن الحق، محتاج إلى من ينبهه وينقذه من غفلته.

لقد نادى أباه بالعلاقة التي تربطهما (أبت)، وهي علاقة من المفترض أن تقوم على الحرص والاهتمام المتبادلين بينهما، وكأنه يذكره بهذه العلاقة؛ لتكون حاضرة في ذهن أبيه، فيدرك أن خطابه نابع منها. وبعد هذا التمهيد اللطيف للخطاب، شرع في الدخول إلى الموضوع بالتدرج، فجاء بالاستفهام عقب النداء مباشرة، ليعضده في التنبيه وفي التلطف، بالإضافة إلى تأديته وظائف أخرى، تدور حول الإقناع بتلطف وترفق.

والملاحظ إنه -عليه السلام- لم يستعمل الأسلوب الخبري فلم يقل: أنت تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، على اعتبار إنه يريد أن يوضح له أن صفات معبوده لا تؤهله للعبادة، وقد يبدو للوهلة الأولى إن الأسلوب الخبري يلتقي مع الاستفهام في هذا المعنى، كما أنه لم يلجأ إلى استعمال النهي الصريح ليطالب منه الكف عن عبادتها فلم يقل له: لا تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، فالنهي الأسلوب الموضوع في الأصل لطلب الكف. وفي الحقيقة لقد أثر الاستفهام لما له من خصوصية لا تتوفر في الأسلوب الخبري، ولا يمكن تأديتها بالنهي المباشر. ويمكن القول إن الاستفهام قد أدى دور الخبر ودور النهي لكن بأسلوب لطيف.

ولو لجأ لاستعمال الأسلوب الخبري لإثبات عدم أهلية هذه المعبودات للعبادة، لاحتمل كلامه الصدق والكذب، ولكنه باستعماله للاستفهام، جعل انتفاء هذه الصفات عنها خلفية ثابتة وحقائق واقعة لا مرأى فيها، لذلك فهو يستفهم عن علة عبادتها برغم ثبات اتصافها بهذه الصفات، وكأن مسألة اتصافها بهذه الصفات أمر مفروغ منه، وثابت معلوم لا يخفى على طرفي الخطاب. ومن جهة أخرى فإن الأسلوب الخبري، يتيح لأبيه إمكانية أن يرد عليه بالتكذيب؛ لاحتمال أن يكون الخبر صادقاً أو كاذباً، لكنه مع الاستفهام لا يترك له مجالاً لتكذيبه في صفاتها، فهي حقائق ثابتة فيها. أضف إلى ذلك إن «الأسلوب الخبري قد يثير غضب أبيه» (الجابرية، ٢٠١٧م: ص ١٢٢)، فيُشعره بأنه يوجه إليه اتهاماً (أنت تعبد ما لا

يسمع)، أو يُنقص من شأن هذه العبادة، وهذا يتنافى مع جو الترفق والتلطف الذي أسسه بالنداء في بداية خطابه، كما أن الاستفهام يقدر ذهن أبيه للتفكير في سبب عبادته إياها، وذلك بالعودة إلى نفسه والبحث عن الأسباب التي دفعته لعبادتها، وهذا ما لا يوفره الأسلوب الخبري، الذي يقدم المعلومة في قالب جاهز.

ومن جهة أخرى إنه -عليه السلام- لو استعمل النهي «لا تعبد» عوض الاستفهام «لم تعبد» لربما أشعر أباه إنه يريد أن يمارس سلطة عليه، ويحول بينه وبين معبوداته؛ أو ربما أوهمه بشيء من الاستعلاء عليه وإلزامه بالكف، إذ النهي في الأصل إنما هو: طلب الكف عن القيام بالفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، لكن الاستفهام: طلب الفهم، حيث يضع المتكلم نفسه في هيئة المسترشد الباحث عن الحقيقة، والطالب للفهم والمعرفة، ويضع المخاطب في هيئة المطلوب منه إجابة حول علة العبادة، وليس المطلوب منه الكف بنحو صريح ومباشر، وبطبيعة الحال فإنه مهما بحث عن سبب وجيه ومقنع ومنطقي يدفعه لعبادتها، فإنه لن يجد، مما يؤدي بالضرورة إلى التوقف عن عبادتها من تلقاء نفسه، وبذلك يكون استعمال الاستفهام في طلب الكف عن الفعل أشد إقناعاً من النهي المباشر؛ لأنه يدفع المخاطب إلى البحث عن سبب يدفعه إلى التوجه بالعبادة، فإذا لم يجده كف عن العبادة عن اقتناع، ومن تلقاء نفسه، وإبراهيم يدرك هذا، ويعلم يقيناً إن أباه لن يتمكن من إيجاد سبب وجيه للعبادة.

وبتأمل البناء اللغوي لاستفهامه -عليه السلام- يتضح أنه قد استعمل «لَمْ» دون «لِمَإِذَا» برغم إن كليهما يُستعمل في الاستفهام عن السبب؛ وهذا يعود إلى أن خطابه -عليه السلام- في هذا المشهد قائم على الترفق والتلطف والتودد إلى أبيه، حيث ينسجم استعماله «لَمْ» مع ذلك، ففيه خفة ورقة في النطق وفي قرعه للسمع.

والملاحظ في هذا الاستفهام، تركيزه على حدوث العبادة لمن له صفات معينة وهي إنه: لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عن عابده شيئاً، وهو بذلك يرشده إلى صفات المعبود الحق، وقد نفى وجودها في المعبودات ليسقط عنها حق التوجه

4 - الاستفهام في مقامات تتسم بالتوتر والشدة

4- 1 الاستفهام في مشهد رغبة قوم موسى - عليه السلام - في عبادة الأصنام

لقد بذل موسى - عليه السلام - الجهد الجهد في رسالته الدعوية، وواجه في دعوته فئتين من البشر: فئة يمثلها قومه، الذين اتصفوا بشدة الجهل والضلال، وعدم أعمال عقولهم؛ فبرغم وضوح الأدلة والبراهين إلا إنهم كانوا ينكصون على أعقابهم المرة تلو الأخرى، ويعودون إلى الضلال، عقب تجلي آيات وحدانية الله - سبحانه وتعالى - وفئة أخرى يمثلها فرعون وملئه، اتسمت بطغيانها الشديد وجبروتها وتسلطها، وقد كان الاستفهام حاضرًا في حواراته معهم، وهو يصوّر شدة المواجهة بينه وبينهم، ويعكس شدة ما يلاقيه من تعنتهم.

فمما يصوّر شدة ما لاقاه من قومه قوله تعالى: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أُنْبُغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) [سورة الأعراف: الآيات ١٣٨ - ١٤٠].

يصور هذا المشهد مدى جهل قوم موسى - عليه السلام - وتواصل الشرك فيهم، وما لاقاه منهم، حيث تبدأ حيثيات المشهد بذكر المرحلة التي يمثلها في دعوته لقومه، فبعد أن نجاهم الله - سبحانه وتعالى - من أعتى الطغاة في الأرض، الذي أذاقهم ذل العبودية، ومارس عليهم ألوان العذاب، فنقلهم الله - سبحانه وتعالى - بإغراقه ومجازرتهم البحر إلى العز بعد الذل، وقد كان من المتوقع أن يقابلوا ذلك بإخلاص العبادة لله وأن يتشبثوا بالإيمان به، لكنهم قد تأصل الذل في نفوسهم، وغرقت قلوبهم في بحار الشرك والكفر، فبعد أن جاوز بهم البحر مباشرة، وجدوا قومًا يعكفون على أصنام، فتاقت أنفسهم لتقليدهم؛ لذلك طلبوا من موسى طلبًا تآباه العقول السليمة، يريدون منه أن يجعل لهم إلهًا غير الله سبحانه وتعالى.

ومن جهة أخرى فإن المشهد في وصفه للقوم الذين انبهروا بعبادتهم، يصور مدى ضلالهم وحقارة ما يعبدون، وذلك في توجيههم للعبادة، قال تعالى: (فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ) فلفظ «قوم» جاء نكرة وهي تدل على الإبهام والشيوع وعدم التحديد، بالإضافة إلى استعمال صيغة المضارعة (يَعْكُفُونَ)، الذي يوحي بالموثوق والاستمرار، ويصور ملازمة العبادة والاستمرار فيها و«تعدية العكوف بحرف (على) لما فيه من معنى النزول وتمكّنه» (ابن عاشور، دبت: م، ج ٩، ص ٨٠). ومن ثم تنكير أصنام «ووصفها بأنها لهم أي القوم دون طريق الإضافة ليتوصل بالتنكير إلى إرادة تحقير الأصنام وأنها مجهولة» (ابن عاشور، دبت: م، ج ٩، ص ٨٠). مما يوحي بأنهم يتعبون أنفسهم بعبادة لا جدوى منها ولا طائل، إذ يلزمون أنفسهم بالخضوع والتذلل إلى شيء حقير مجهول الهوية. وبرغم هذه الحقارة التي كان عليها القوم، وبرغم العز بعد الذل الذي تحوّل إليه قوم موسى، قد فاجأوه بأن تاقت نفوسهم لتقليد هؤلاء الذين يذلون أنفسهم لأصنام. وهم بالطبع لم يطلبوا من موسى أصنامًا بطريق صريح ومباشر، فلم يقولوا اجعل لنا صنمًا، وإنما (اجعل لنا إلهًا)، أضف إلى ذلك فإنهم ليخففوا من شدة طلبهم عليه استعملوا صيغة الإفراد والتنكير، فأى صنم -ولو واحد- كان سيؤدي بغرضهم، كل هذا ليلقى طلبهم قبلاً عنده، وهذا يصور تمكن الجهل من نفوسهم، ويصور -في الوقت نفسه- الشدة والعنت الذي لاقاه -عليه السلام- منهم. ويمكن تأمل رده عليهم من جوانب ثلاثة هي:

- وصفه لهم بالجهالة في قوله: (إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)، وفيه تنبيه لهم بأن ما طلبوه إنما هو نابع من تأصل هذه الصفة فيهم، وقد أكد ذلك بإن واسمية الجملة، والتعبير بـ«قوم» الذي يوحي «أن وصفهم بالجهالة كالمحقق المعلوم الداخل في قوم قوميتهم» (ابن عاشور، دبت: م، ج ٩، ص ٨٢). وكأن هذه الصفة من تأصلها فيهم، وشيوعها بينهم، لا يكاد يشذ عنها أحد منهم، قد عُرفوا بها وطُبعوا عليها، بالإضافة إلى استعماله للفعل المضارع «تجهلون»، الذي يوحي بتكرار الجهل منهم، واستمرارهم فيه، وكأنه قد غدا ديدنهم الذي اشتهروا به، وما زالوا يمارسونه

بتجدد واستمرار. وفي هذا تعنيف لهم واستنكار لما طلبوه.

- بيان ضلال القوم الذين انبهروا بهم، ومآل هذه العبادة في الآخرة حيث قال: (إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرِّمًا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وفيه يحقر ما يفعله من تآقت أنفسهم إلى تقليدهم، ونفي أي طائل أو فائدة ترجى من عملهم فما هو إلا مجرد باطل لا جدوى منه دنيا وآخرة.

- توجيه الاستفهام إليهم حول ما طلبوه (قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)، فقد ختم -عليه السلام- خطابه لقومه بالاستفهام، بعد أن بين لهم طبيعة نفوسهم الجاهلة، وإن ما طلبوه منه ما هو إلا ترجمة لهذا الجهل الذي جُبلوا عليه، وبعد أن أكد لهم فساد التوجه بالعبادة لغير الله -عز وجل- حيث ترقى في خطابهم، وفي إنكاره ما طلبوه، إلى أن وصل إلى الأشد في الإنكار وهو الاستفهام.

وفي صياغته للاستفهام (قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا)، ولم يقل: أغير الله تبغون إلهًا، وفي الحقيقة هو لم يبيغ لهم إلهًا، وإنما هم من أراد ذلك وطلبه منه، فقد كان من المتوقع أن يستفهم عن رغبتهم هم، وليس عن رغبته هو. إنه -عليه السلام- لو جاء بالعبارة الثانية، لكان متعجبًا من طلبهم ومنكرًا له، وهذا لا يتناسب مع سياق خطابه، فقد استعمل الاستفهام في ختام خطابهم، بعد أن أكد لهم جهلهم في طلبهم، وأثبت لهم ضلال من أرادوا تقليدهم، فمن غير المناسب أن يأتي بعد ذلك، فيتعجب أو يستنكر طلبهم، فالأنسب هنا أن يتعجب من نفسه فيما إذا انتهى إلى زمرة الجاهلين، فيستجيب لقبول طلبهم، وبذلك يكون الاستفهام عن ذاته أشد إنكارًا وتعجبًا من أن يكون عن طلبهم. وهو باستفهامه ينفي عن نفسه أن يقع فيما وقعوا فيه من طلبهم ورغبتهم في عبادة غير الله، ويبرئ نفسه من الوقوع في ذلك، وفي هذا رفض شديد للهجة لطلبهم.

ومن جهة أخرى، إنه باستفهامه قد صوّر استحالة أن يصدر منه ابتغاء إله غير الله الذي قد فضل قومه على العالمين، بينما القوم أنفسهم يطلبون إلهًا غيره وهم

المفضلون والمتنعمون بفضله. فعندما يتوجه بالاستفهام عن نفسه بـ: (أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْبَغِيكُمْ إِلَهًا)، مع كون التفضيل لهم (وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)، فإن ذلك يكون أشد توبيخاً وتقريعاً لهم، فهو لا يبغى إلهاً غير من فضل قومه، وهم يبغون إلهاً بعد أن فضلهم، وهنا يعيدهم إلى أنفسهم كي يستشعروا فضل الله عليهم، فيخجلوا مما رغبوا فيه وطالبوه به.

إن استفهامه - عليه السلام - يحمل دلالات عدة، ويصور شدة ما لاقاه من قومه ويكشف عن المفارقة بينه وبينهم، ويصور شدة إنكاره لطلبهم وتعجبه من هذا الطلب، وفيه تعريض لهم بأنهم قد جحدوا نعمة الله - عز وجل - عليهم.

4 - 2 الاستفهام في دعوة موسى - عليه السلام - فرعون وملئه

قال تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتِنَا عَمَّاءَ وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ) [سورة يونس، الآيات: ٧٥ - ٧٨]. إن هذا المشهد يصور جانباً من جوانب التعنت الذي كان يواجهه موسى - عليه السلام - من فرعون وملئه، فقد قابلوا آيات الله التي جاءتهم بالاستكبار؛ وذلك لتأصل الإجمام فيهم، وقد صوّرت سرعة ردة فعلهم تجاه مجيء الحق، ومسارعتهم في التكذيب بغيب الرابط في قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا: قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ).

وقد أكدوا موقفهم من الدعوة بعدة مؤكدات في قولهم: (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ)، بالإضافة إلى استعمال اسم الإشارة للقريب «هذا»، الذي قد يشير إلى الوجود الفيزيائي في الحضرة، كما قد يصور احتقارهم للآيات، فهي لا تعدو - في نظرهم - إلا أن تكون مجرد سحر، بإمكان أي ساحر أن يأتي بمثله. فيرد موسى - عليه السلام - على ادعائهم باستفهامين متتاليين: (أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا

يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)، فيواجهون استفهاميه باستفهام: (أَجِئْتَنَا لِتُلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ)، فقد اعتمد الحوار بين الطرفين بالدرجة الأولى على الاستفهام، وعد المفسرون استفهاميه -عليه السلام- بأنهما «من باب الإنكار والتوبيخ» (أبو حيان، ٢٠٠٥م: ج٦، ص٩١)، ليصور بهما شدة التوتر في العلاقة بينه وبينهم، ورفضه التام لما ادعوه.

وقد دار استفهامه الأول حول صدور القول منهم، وكون هذا القول قد جاء ردة فعل تجاه الحق بعد أن جاءهم، وهو يسجل عليهم بشاعة الادعاء بأنه بسحر، وفي الوقت نفسه يثبت أن ما جاء به حق، وهذا يبعده تمام البعد عن السحر، الذي هو محض تخييل وأوهام، فالسحر يعتمد في الأساس على إيهام الناس، وهو بذلك على طرفي نقيض من الحق. أما قوله: (لَمَّا جَاءَكُمْ)، فهو يظهر بشاعة أخرى فيما ادعوه، حيث لم يقابلوا مجيء الحق بالإيمان، وإنما بالقول بأنه سحر، وصدور هذا القول منهم في مقابل مجيء الحق يُعد منكراً يُستفهم عنه، إذ هو مناف للفطرة السليمة.

أما استفهامه الثاني، فقد عني بوصفهم الآيات نفسها بالسحر: (أَسِحْرٌ هَذَا)، إذا أمر منافاتها للسحر ظاهر جلي، فوصفها بالسحر أمر غريب، فهم على علم ودراية بالسحر، ويعلمون مدى المفارقة بين الحق والسحر، لذلك أعاد عليهم ما قالوه؛ ليسجل عليهم فداحة قولهم، فهو -عليه السلام- على علم بأنهم قالوا، ولا يريد أن يستفهمهم فيما إذا كانوا قد قالوا أم لا، ولا يريدهم أن يعترفوا بصدور القول منهم، وإنما يريد أن يسجل عليهم قولهم؛ ليكون حجة عليهم، ويصور شناعته، وغرابته، وبعده عن الصواب.

إن هذا النوع من الاستفهامات الذي يُعاد فيه قول أو دعوى ادعاها المخاطب، يُستعمل في المواجهة الشديدة، وتصوير غرابة وفداحة دعواه أو قوله؛ ليرتدع ويكف عمًا يقوله ويدعيه، لذلك فهم لم يجيبوه عن استفهاميه؛ لأنهم على علم إنه لا يريد منهم إجابة، أو معرفة، أو فهمًا، وإنما كان الاستفهام وسيلته لتصوير

افترائهم، وبعد قولهم عن الصواب؛ لذلك ردوا عليه باستفهام، يعكس ما في نفوسهم تجاهه، وتجاه دعوته قال تعالى: (قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ) إنه استفهام يصور حقيقة ما في نفوسهم، ويكشف عن سبب عدم إيمانهم وما ادعوه في بداية خطابهم بقولهم: (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ)، فمرده إلى مرض الاستكبار الذي تأصل فيهم، وطغى عليهم فأعماهم، ويعكس كذلك شكهم في صدق دعواه وسمو هدفه، فهم يخشون إن اتبعوه أن تكون الكبرياء له ولأخيه هارون. وهنا يكشف الاستفهام عن جفائهم، وشدة تعنتهم، وانحرافهم عن الحق والصواب؛ إذ ركزوا في استفهامهم على مجيء موسى ليحوّل وجهتهم عما ورثوه عن آبائهم، فتكون الكبرياء له ولأخيه؛ لذلك أتبعوا الاستفهام بالنفي القاطع بأنهم لن يؤمنوا له فقالوا: (وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ).

5 - مقارنة بين مشاهد بينها إحدائيات مشتركة

فيما يلي مقارنة بين استعمال الاستفهام في مشاهد بينها إحدائيات مشتركة؛ لتبين المفارقة بين استعمال الاستفهام في التلطف، واستعماله في المواجهة الشديدة.

5 - 1 مشاهدان من دعوة موسى

يمثل المشهد الأول قوله تعالى: (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بُسْمًا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [سورة الأعراف، الآية: ١٥٠]. أما المشهد الثاني فيمثله قوله عز وجل: (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)، [سورة طه، الآيات: ٨٦-٨٧] إلى قوله تعالى: (قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ

يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَلَمْ تَرَفُ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٤) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا
بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) [سورة طه،
الآيات: ٩٢-٩٥].

إن المتأمل في المشهدين، سيلاحظ اشتراكهما في بعض الإحداثيات منها: الحالة
النفسية التي كان عليها موسى، بالإضافة إلى الجرم الذي اقترفه قومه، والمتمثل في
مخالفتهم لأمره بعد رحيله عنهم. ولكن قبل الحديث عن الاستفهامات التي وجهها
موسى في المشهدين، لا بد من معرفة موقع المشهدين في خارطة قصة موسى
مع قومه، ومعرفة ما إذا كانا مشهداً واحداً عُرض بطريقتين، أم هما مشهدان
في موقفين من الدعوة بينهما إحداثيات مشتركة، بحيث يمثل كل منهما جزءاً من
صورة متكاملة لحدث واحد.

إن الإطار العام للمشهدين هو تصوير ردة فعل موسى -عليه السلام- تجاه عبادة
قومه العجل في غيابه عنهم، والحالة النفسية التي كان عليها تجاه هذه العبادة،
فقد كان في حال من الغضب الشديد والحزن والأسف على ذلك، وقد عُبر عن
ذلك بـ«غضبان»، والغضب هو: «غليان القلب بسبب حصول ما يؤلم» (أبو
حيان، ٢٠٠٥م: ج ٥، ص ١٨٠)، وصيغة «فعالن» من صيغ المبالغة، أما «أسفاً»
فـ«الأسف بدون مدّ صيغة مبالغة للأسف بالمد الذي هو اسم فاعل للذي حلّ به
الأسف، وهو الحزن الشديد» (ابن عاشور، دبت: ٥م، ج ٩، ص ١١٤).

ولكن الملاحظ، إنه في سورة طه، قد ناداهم قبل الدخول في الخطاب بـ«يَا
قَوْمِ»، وهذا النداء قد حدد المخاطبين بأنهم قومه، ومن ثم وجه إليهم الاستفهام، أما
في سورة الأعراف فلم ينادهم، وإنما شرع في توبيخهم مباشرة ومن ثم استفهامهم.
والجدير بالذكر، إن حديث المفسرين حول تحديد المخاطبين في سورة الأعراف،
يشير إلى وجود احتمالين، يقول الزمخشري (٥٣٨هـ): «هذا الخطاب إما أن يكون
لعبيدة العجل من السامري وأشياعه، أو لوجوه بني إسرائيل وهم هارون-عليه

السلام-والمؤمنون معه» (الزمخشري، ٢٠٠١م: ج ٢، ص ١٥٢). وأميل إلى تحديد المخاطبين بأنهم من جعلهم خلفاء له من بعده لعدة اعتبارات منها:

- إنه لم ينادهم في سورة الأعراف بـ«يا قوم»، كما هو الحال في سورة طه، وهذا يعني إن المخاطبين في سورة طه بالضرورة هم القوم، أما في سورة الأعراف فمن الممكن الترجيح بين احتمالين.

- في سورة الأعراف قال: (خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي)، بينما في سورة طه قال: (فَأَخَلَفْتُمْ مَوْعِدِي)، ففي الأول الكلام عن خلافة من بعده، وفي الثاني إخلاف لموعده.

- إنه في سورة الأعراف كان أشد انفعالاً عنه في سورة طه، حيث ترجم انفعاله إلى جانب التعبير بالقول-بحركة جسمية بإلقاء الألواح، والشروع بجر رأس أخيه الخليفة الأول على القوم، بينما في سورة طه كان باحثاً عن الأسباب المؤدية إلى عبادة العجل، فقد وجه استفهاماً إلى كل طرف من الأطراف المسؤولة في هذه القضية على انفراد وذلك على النحو الآتي:

١- القوم الذين عبدوا العجل في غيابه: (يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي) [سورة طه: الآية ٨٦]، وقد أجابوه ب: (مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا) [سورة طه: الآية ٨٧].

٢- هارون الذي جعله خليفة على القوم من بعده: (يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) [سورة طه: الآيات ٩٢-٩٣]، وقد أجابه: (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) [سورة طه: الآية ٩٤].

٣- السامري الذي أخرج لهم العجل: (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) [سورة طه: الآية ٩٥]، الذي أجابه: (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ

الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي) [سورة طه: الآية ٩٦].

فموسى هنا باحث عن الإجابة، أكثر من كونه موبخاً لهذه الأطراف، إذ أجابوا عن الأسئلة التي طرحها عليهم، ومعلوم أن استفهام التوبيخ والإنكار، لا يُطلب من المخاطب معه أن يقدم إجابة، وإنما الإعلان عن عدم قبول فعل قام به المخاطب، فلو كان موبخاً فقط، لما أجابوا محددين دورهم في هذه القضية.

وبناء على ما سبق، فالذي يبدو إن المشهد في الأعراف، كان سابقاً في الحدوث عن المشهد في طه، حيث يمثل مرحلة الاصطدام الأولى بعد رجوعه غضبان أسفاً، وقد واجه في هذه المرحلة هارون ومن جعلهم خلفاء من بعده على القوم، فلم ينادهم، وشرع في توبيخهم وتقريرهم، وألقى الألواح التي كانت معه، وشرع يجر رأس أخيه، معتمداً في خطابهم على كون الخلفاء لم يؤديوا مهمة الخلافة على وجهها الصحيح، فالاستفهامات التي وجهها تدل على عمق التوتر بين طرفي الخطاب، أما المشهد في سورة طه فهو تالٍ للمشهد الأول ومكمل له، حيث يمثل مرحلة التوجه إلى القوم أنفسهم بالتعنيف، فاستفهاماته الأولى الموجهة إليهم، لتعنيفهم على ما ارتكبه من جرم بعبادتهم العجل، ومن ثم بدأ الغضب يهدأ، فأخذ يعالج المشكلة، ويبحث عن الأسباب بتوجيه استفهام إلى كل فئة. ويمكن القول إنه باستثناء الاستفهام الأول الذي جمع بين التوبيخ والتقرير والمطالبة بتقديم تعليل وإجابة، فإن الاستفهامات الأخرى هي على حقيقتها، الهدف منها الحصول على المعرفة، لذلك قدمت له كل فئة تعليلاً لما حدث، وانتهى المشهد بحرق العجل ونسفه وعقاب السامري. فموسى في نهاية مشهد سورة طه، أهدأ نفساً عنه في بدايته، وكذلك عنه في مشهد سورة الأعراف. إنها بلاغة قرآنية متفردة، حيث حُكي جزء من المشهد وكأنه مشهد متكامل، وصوّر جزء آخر منه في سورة أخرى، وكأنه كذلك متكامل الأركان، وإذا ما تُؤمل المشهدان وُجد بينهما تكامل وانسجام، وهذا مما يؤكد أنه لا تناقض في القرآن الكريم أو تكرار لا طائل منه فقد أحكمت آياته.

إن الذي يجمع الاستفهامات في المشهدين، كونها تصور الغضب والأسف الذي

حل بموسى، تجاه ما حدث من التوجه لغير الله في العبادة، وتعكس رفضه الشديد لما حدث. وبرغم إن لكل استفهام له خصوصيته إلا إنها يجمعها المواجهة الشديدة بين طرفي الخطاب، والتعبير عن عدم الرضا عن فعل قام به المخاطب وتعنيفه عليه، وهي تتعاضد مع السياق العام للمشهدين في تصوير الحالة النفسية التي كان عليها موسى عليه السلام.

والملاحظ في مشهد سورة الأعراف الذي مثل مرحلة الاصطدام الأولى مع الخلفاء إن موسى -عليه السلام- بعد أن ذم خلافة الخلفاء من بعده، وجه إليهم الاستفهام: (أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ) [سورة الأعراف، الآية ١٥٠]، وهو في هذه المرحلة لا يبحث عن إجابة، فقد بلغ منه الغضب منه مبلغاً، لدرجة إنه قد انتقل إلى ترجمة غضبه إلى مرحلة الحركة الفعلية المتمثلة في إلقاء الألواح والشروع في جر رأس أخيه. وقد أدركوا إنه كان يقصد باستفهامه توبيخهم؛ لذلك لم يجيبوا عنه.

ولئن وجه موسى إلى الخلفاء في سورة الأعراف استفهاماً واحداً، فإنه قد قرع القوم في سورة طه بالاستفهام تلو الآخر: (أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفْتَالًا عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أُرَدْتُمْ أَنْ يُجَلَّ عَلَيْكُمُ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي) [سورة طه، الآية: ٨٦]، فكأنه في كل استفهام يوجهه إليهم، يورد احتمالات للنكوص عن عبادة الله -عز وجل- وإخلافهم مواعده، ففي الاستفهام الأول يذكرهم بوعد الله لهم، وكأنهم عندما عبدوا العجل قد نسوا هذا الوعد الذي وصفه بأنه «وَعَدًّا حَسَنًا»، أو لم يرضوا به، وعدم الرضا بهذا الوعد من الله مع وصفه بالحسن، لا يكون من عاقل، ويوبخ من يخلفه، وفي الاستفهامين الثاني والثالث، يورد احتمالين؛ فمادام وعد الله حسناً، فإما أن العهد بينهم وبينه -سبحانه وتعالى- قد طال عليهم، فانحرفوا عن عبادته. وفي الحقيقة إن وعده لهم لم يطل كي ينقضوه. وإما إنهم قد استعجلوا العذاب، ولا يستعجله عاقل، وهنا ينبههم إلى أن نتيجة عبادتهم لغير الله، ستؤدي إلى غضبه عليهم وعقابهم، وفي ذلك تصعيد للخطاب، وتوبيخ للمخاطبين على ما فعلوه، ولوم بنبرة شديدة، فقد تجاوزوا حدودهم بإخلافهم للوعد دون سبب وجيه

لذلك.

5 - 2 مشهدان من دعوة إبراهيم

يمثل المشهد الأول قوله تعالى في سورة الشعراء:

(وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاقِبِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ.) [سورة الشعراء، الآيات: ٦٩ - ٧٧]، أما المشهد الثاني فيمثله قوله - عز وجل- في سورة الصافات: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَنْفِكَآ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى إِلِهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (٩٤) قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ) [سورة الصافات، الآيات: ٨٥-٩٧].

إن الملاحظ في المشهدين ثبات أطراف التخاطب، إلا إن البناء التركيبي للاستفهامين في مستهل الخطاب، قد جاء مختلفاً، ففي مشهد سورة الشعراء اكتفى -عليه السلام- بقوله: (مَا تَعْبُدُونَ)، بينما في مشهد سورة الصافات أضاف «ذا» فقال: (مَاذَا تَعْبُدُونَ)، ومن جهة أخرى اختلفت الاستفهامات التي وجهها بعد هذا الاستفهام في المشهدين، كما أنهم قد أجابوا عن استفهاماته في الشعراء، ولم يجيبوا عنها في الصافات.

وفي الحقيقة إن للعلاقة بين طرفي الخطاب، والحالة النفسية التي كانا عليها في المشهدين دوراً في هذا الاختلاف، فكل استفهام من الاستفهامات في المقامين، متسق وطبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب، وهو يقيس مدى التوتر بينهما.

والمتمأمل في المقامين، يجد مشهد سورة الشعراء، قد جاء في مقام الدعوة والإرشاد والتوجيه إلى الإيمان بالله- عز وجل- فالاستفهام قد جاء لتنبيه المخاطبين، وإرشادهم إلى حقيقة ما يعبدون، والتفكير في طبيعته وماهيته. ولا توجد شدة في هذا المشهد إلا في نهايته، عندما أعلن عداوته لما يعبدون، ويبدو إن إعلانه للعداوة، إنما هو من باب تأكيد رفضه لهذه العبادة، والتمهيد للانتقال لتفصيل صفات المعبود الحق الله - سبحانه وتعالى- وكأنه يعرض عليهم بديلاً لمعبوداتهم.

أما مشهد سورة الصافات ففيه عنف، ومواجهة شديدة من قِبَل الطرفين، فقد استُعمل الاستفهام لتوبيخ المخاطبين وتقريعهم، وقد أوتر استعمال «ماذا»؛ لما يتميز به من زيادة في المبني، ف «المستفهم إذا قصد التقريع والتوبيخ أطال كلامه إدلاءً بحجته وتعنيفاً لمن يخالفه» (ابن الزبير، دبت: ص ٣٧٦)، والمنبّه يكفيه اللفظ الأقل، بينما المقرّع المعنّف يحتاج إلى ما هو أشد من ذلك، يقول الإسكافي (٤٢٠ هـ): «فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية ولما بالغ وقرّع استعمال اللفظ الأبلغ، وهو (ماذا)» (الإسكافي، ٢٠١٤م: ص ٣٨٣). والذي يؤكد ذلك إنهم في مشهد سورة الشعراء قد دخلوا في حوار معه وأجابوا عن استفهاماته، بينما في سورة الصافات لم يعقبوا على كلامه ولم يجيبوا عن استفهامه وإنما عرضوا عنه وتجاهلوه، فلما لم تجد الحجة القولية معهم نفعا اتجه إلى الحجة الفعلية، فحطم أصنامهم بعد أن تولوا عنه مدبرين. وفي نهاية المشهد بلغ عنفهم معه ذروته، فقد أرادوا أن يحرقوه، ولم يكتفوا بتكذيبه قال تعالى: (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ) [سورة الصافات: الآية ٩٧]، فرد الله كيدهم في نحورهم يقول الله عز وجل: (فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ) [سورة الصافات: الآية ٩٨].

وبناء على ذلك، يمكن القول: إن المشهدين لمقامين مختلفين في دعوة إبراهيم لأبيه وقومه، وإن المشهد في سورة الشعراء كان أسبق من المشهد في سورة الصافات، فقد كان -عليه السلام- يهدف في سورة الشعراء إلى إيقاظ عقولهم، وتنبيههم لحقيقة ما يعبدون، وتعريفهم بدين الله وبدعوته، وقد كان هذا في بداية

دعوته، حيث لم تصل العلاقة بين طرفي الخطاب إلى درجة شديدة من التوتر، ولكنه بعدما قوبل بالإعراض والصد والإصرار على الكفر، ترقى في خطابه معهم إلى مرحلة الحجاج، فاحتاجوا إلى التقرير والتوبيخ والشدة في الخطاب، علّمهم يعودون إلى رشدهم، ولعل الشدة تجدي نفعاً معهم، لذلك كان التوتر في الصافات شديداً، فلم يكتفوا بالرفض وإنما ناصبوه العدا، فكان خطابه ملزماً لهم بالحجة، مقررًا إياهم على الاستمرار في الانحراف العقدي والإصرار عليه.

وبنأمل بنية الخطاب في المشهدين، يتضح أن إبراهيم -عليه السلام- في خطابه لأبيه وقومه في مشهد الشعراء، قد سار وفق خطوات، منتقلاً من مرحلة إلى أخرى، لعلهم تنتبه عقولهم، وتلين قلوبهم. وقد كان الاستفهام حاضرًا في هذا المشهد، وأداة من أدوات الإقناع بلطف ولين وتدرج، لذلك استفتح -عليه السلام- خطابه بالاستفهام بـ (مَا تَعْبُدُونَ) وهو في الحقيقة لا يجهل كنه ما يعبدون، ولكنه أظهر تجاهلاً لها، وهذا ما يُعرف في البلاغة العربية بـ«تجاهل العارف»، وقد عرّفه العلوي في الطراز بقوله: «هو أن تسأل عن شيء تعلمه موهمًا أنك لا تعرفه، وأنه مما خالجتك فيه الشك والريبة... وهو مقصد من مقاصد الاستعارة يبلغ به الكلام الذروة العليا، ويحلّه في الفصاحة المحل الأعلى» (العلوي، ١٩٨٠م: ج ٣، ص ٨٠: ٨١). أضف إلى ذلك، إنه باستفهامه يستدرجهم بلطف وترفق، وبطريق غير مباشر للدخول في حوار معه، وهو -في الوقت نفسه- يوجههم للتفكير في ماهية ما يعبدون، علّمهم يعودون إلى أنفسهم، فينفكرون في كنهه، ويستحضرون حقيقته. وقد تحقق له بعض ما هدف إليه في الخطوة الأولى من حوارهم معهم، حيث دخلوا في حوار معه، فحددوا ماهية معبوداتهم في إجاباتهم عن استفهامه، قال تعالى: (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَاكِفِينَ) [سورة الشعراء، الآية: ٧١]، فالذي يبدو من إجاباتهم إنهم يدركون ماهيتها وطبيعتها بما لا تنكره حواسهم، وهذا يعني أن عبادتهم لها ليس لأنهم لا يعلمون ماهيتها، وإنما هناك سبب آخر وراء ذلك، فقلوبهم وعقولهم قد طغى عليها الضلال، فغشاها عما أقرته حواسهم.

لقد حددوا كنه معبوداتهم بأنها «أصنام»، وتشير معاجم اللغة إلى كون الصنم ما هو إلا «جثة مادتها الخشب أو الفضة أو النحاس» (ابن فارس، ٢٠١٢م: مادة صَنَم، والأصفهاني، ٢٠١٣م: المادة نفسها). فانعدام الحياة ظاهر جلي فيها. وفي الحقيقة إن تحديد ماهيتها بأنها «أصنام»، بالإضافة إلى جمعها، يقدر في أهليتها للعبادة، إذ التعدد يوحي بالثبوت والضعف.

والملاحظ في إجابتهم، إنهم لم يقفوا عند حد تحديد الماهية، كما هو مطلوب منهم، فقد كان قولهم (نَعْبُدُ أَصْنَامًا) كافيًا للإجابة؛ لأن استفهامه يوحي بأنه يريد منهم فقط أن يحددوا كنهها، لكنهم صوروا له شدة ارتباطهم بها، وشدة ملازمتهم إياها، واستمرارهم على ذلك، وافتخارهم به، برغم إنهم على علم واعتراف بأنها مجرد أصنام، فقد أطنبوا فزادوا عليها: (فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ)، فبرغم اعترافهم بأنها مجرد أصنام، أكدوا على شدة تعلقهم بها، وتشبثهم بعبادتها، بل وافتخارهم وتباهيهم بذلك، أمام إبراهيم عليه السلام، يقول الزمخشري (٥٣٨هـ): «هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار. ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم (نَعْبُدُ)، (فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ)، ولم يقتصروا على زيادة نعت وحده» (الزمخشري، ٢٠٠١م: ج ٣، ص ٣٢٣).

إن قولهم: (فَنَظَّلُ) يصور مزاولتهم عبادتها وعدم انقطاعهم، لا يشغلهم عنها شاغل ولا يصرفهم عن عبادتها صارف، والجدير بالذكر هنا، إن «ظل»، «يُستعمل لمزاولة الفعل في النهار» (الخليل، دبت: مادة: ظل)، ومن المعلوم أن الإنسان يكون مشغولاً في النهار بأمر كثيرة، تتعلق بحياته اليومية ومعيشته، ولكن هؤلاء من شدة تمسكهم بعبادتها، يتركون كل شيء ويلزمونها. ويؤكد قولهم: «لها»، باختصاصها بالعبادة دون غيرها. وتقديم الجار والمجرور؛ لتأكيد هذا التخصيص، وقصر العبادة لها دون غيرها. أما قولهم: «عاكفين»، فيشير بمعناه المعجمي إلى «الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم» (الأصفهاني، ٢٠١٣م: مادة:

عَكَفَ)، ويدل بصيغته الصرفية على الاستمرار؛ ذلك إن «اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه» (الرازي، دبت: م ١٣، ج ٢٥، ص ٢٦)، حيث يتعاقد المعنى المعجمي، والدلالة الصرفية لـ «عاكفين» في تصوير مدى ثباتهم في عبادتها. ويعضد هذا كله دلالة الجملة الاسمية، التي تؤكد الثبات والاستمرار، فقد زادوا في الإجابة بما يصور شدة تسمكهم بعبادتها، وتعلقهم الشديد بها، وافتخارهم بملازمتها، وتأكيدهم على الديمومة، والاستمرار في ذلك. وهنا ينتهز الفرصة، فيبني على إجابتهم بتحديد ماهيتها بكونها «أصنام»، استفهامات أخرى: (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)، فالصنم ثابت جامد، لا يسمع، ولا يتكلم ولا يعقل، ومن يدرك هذا وقرر بذلك ومن ثم يعبدها، يوقع نفسه في تناقض.

وقد أخذ يوالي من استفهاماته، يلاحق عقولهم ونفوسهم بالاستفهام تلو الآخر، يوجههم بها إلى جوانب مهمة كان من المفترض أن ينتبهوا إليها؛ كي يفوقوا من غفلتهم، وينتبهوا إلى فداحة انحرافهم في العبادة. إن السلسلة المتوالية من الاستفهامات، تحاصرهم وتجعل الخطاب مشحوناً بقوة موجّهة للعقل، ومحركة للذهن، خاصة أن المخاطبين غارقون في الضلال، وهي -في الوقت نفسه- تصور مدى حرصه وإصراره على هدايتهم، حيث يلاحقهم من عدة اتجاهات وجوانب علّ ذلك يجدي نفعاً معهم.

وقد جاء بصفات لا يستطيعون بحال من الأحوال إثباتها لأصنامهم، ينبههم إلى خلو معبوداتهم من الصفات التي تؤهلها للعبادة، وهو بذلك يدفعهم دفعاً إلى الإقرار بعدم أهليتها للعبادة، ولو في نطاق العودة إلى الذات، وإيقاظها من غفلتها.

إنه لم يفسح لهم المجال للافتخار، فاستفهاماته المتتالية تحط من شأنها، وتلغي أحقية عبادتها فضلاً عن هذا التخصيص بالعبادة والمباهاة فيه. فكل استفهام يقدر في أحقيتها للعبادة، ويوجه عقولهم إلى الأسس السليمة لاختيار المعبود الحق، الذي يستحق أن تظل العبادة له، وأن يُفتخر بعبادته. وهو يحاصرهم للإجابة بـ

«لا»، فلا يمكنهم أن يجيبوا بـ «نعم»؛ لأنهم قد حددوا مسبقاً أنها أصنام، ومعلوم أن الصنم إنما هو جماد، فلم يعهدوا عليه غير ذلك، ولم يكلمهم، كما لم يظهر لهم ردة فعل توحى بسماعه لما يقولون. ولو أجابوا بـ «نعم» لطالبهم بإثبات، ولا يمكنهم ذلك، كما لم يستطيعوا الإجابة بـ «لاستطيع» أو «لا يمكنها» برغم إنها هي الإجابة المفترض أن يجيبوا بها؛ فلو أجابوا بذلك لاعترفوا، وأقروا بعدم أحقيتها للعبادة، ولزمهم -بناء على ذلك- التخلي عن عبادتها، وهم قد أدركوا ذلك، فلم يستطيعوا مواجهة استفهاماته، فقد لجؤوا إلى إخفاء الإجابة الصحيحة، والهروب إلى المراوغة والإضراب عن الإجابة بـ «لا»، دون أن يسجلوا على أنفسهم إقراراً صريحاً بعدم أهليتها للعبادة، فيقروا بنفي الجدوى من عبادتها؛ لذلك عللوا سبب العبادة بتقليد آبائهم في ذلك، وأنهم ينتهجون نهجهم، ويقتفون آثارهم، وهذا يصور مآطلتهم ومدى بعدهم في الضلال، بل وإصرارهم عليه؛ ذلك إن تقليد القدماء، واتباع نهجهم وسننهم في عبادة ما لا يستحق، وما لا تتوفر فيه صفات المعبود الحق ليس حجة وليس عذراً.

وينتقل بهم إلى مرحلة أخرى في خطابه، فيوجه إليهم استفهاماً، حيث قال: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)، إنه هنا لا يريد أن يستفهم إن كانوا قد رأوا ما يعبدون، وإنما يريد أن يستحضر جميع ما يعبدون، ويعلن موقفه المعادي لها. إن الاستفهام بـ «أفرأيتم»، يعمل على استحضار آلهتهم في مجال العهد الذهني؛ ليبنى على معرفتهم بها، معرفة أخرى متمثلة في علاقته بمعبوداتهم القائمة على البراءة منها، ومعاداتها.

ويعمل هذا الاستفهام على تنبيههم، وتركيز أذهانهم للخبر الذي سيلقيه بعده، فينبههم قبل إلقاء الخبر، ويشوقهم إليه؛ وذلك لأهميته، فهو لم يعلن مجرد البراءة من عبادتها، وإنما تجاوز ذلك إلى معاداتها، ومما لا شك فيه، فإن هذا الخبر سيكون له وقع عليهم، كما أنه يُعدُّ مدخلاً للحديث عن إلهه (رَبَّ الْعَالَمِينَ)، وما يتميز به من صفات لا تتوافر في معبوداتهم على تعددها وكثرتها، لذلك وصفه بالربوبية، وما

توحي به هذه الصفة من تعهد ورعاية واهتمام، وهو رب لا تختص ربوبيته لقوم دون آخرين، وإنما للعالمين بأسرهم، وليست عبادته مبنية على تقليد أعمى، وإنما لأحقيته بالعبادة، وللتوجه إليه بالعبادة فوائد ترجى، ونتائج تجنى. وهنا يُعرّض لابتهاجمهم في إجابتهم عن استفهامه الأول، ومفاخرتهم بعبادة الأصنام، إذ المفاخرة بالتوجه إلى المعبود الحق الذي هو رب للعالمين.

ويمكن القول: إن الخطاب بينه وبينهم قد بلغ ذروته في استفهامه الأخير، حيث علت نبرة الخطاب، فأعلن موقفه المعادي من معبوداتهم، ومع ذلك كان متمسكاً بالإيضاح والتنبيه، حيث فصل لهم صفات الله - سبحانه وتعالى - التي لا تناديه فيها معبوداتهم، العاجزة عن مجرد السمع، والإجابة، والنفع ودفع الضرر.

أما مشهد سورة الصافات، فللاستفهام فيه خصوصية، فقد تبين فيما سبق أن الخطاب في هذه الآيات قد جاء بنبرة أشد عنه في سورة الشعراء، وإن التوتر بين طرفي الخطاب قد بلغ مداه، فاستفهاماته - عليه السلام - تعبر عن شدة ضيقه منهم، وما يلاقيه من تعنتهم، وبعدهم عن الهدى، برغم الجهد الجهد الذي يبذله في دعوتهم، ومحاولاته المخلصة في إيقاظهم من غفلتهم. وقد اعتمد في خطابه على توجيه الاستفهام تلو الآخر دون أن ينتظر ردًا منهم، وإجابة عن استفهاماته، وهم - في الوقت نفسه - أعرضوا عنه وتجاهلوه، ولم يكلفوا أنفسهم الرد عليه، بالإضافة إلى أنهم في نهاية المشهد قد حاولوا قتله بإلقائه في النار.

لقد وجه إليهم في مستهل خطابه معهم في هذه الآيات ثلاثة استفهامات متتالية، وجميعها تشي بنبرة شديدة، وتصور شدة المواجهة بينه وبينهم، فالاستفهام الأول الذي وجهه إليهم في بداية خطابه (مَاذَا تَعْبُدُونَ)، لم يكن الهدف منه أن يعلم ماذا يعبدون، ولم تكن إجابتهم غايته، وإنما الهدف هو إظهار تجاهله لما يعبدون، وتحقيرها، وتوبيخهم وتقريعهم على هذه العبادة، فهو في نهاية مشهد الشعراء قد أعلن لهم عداوته لما يعبدون، وقد كان بينه وبينهم حوار حول ماهيتها، وقد حددوا ماهيتها بأنها «أصنام» فإذا ما اعتبرنا مشهد الشعراء أسبق من الصافات،

فلا جدوى من أن يطالبهم مرة أخرى أن يحددوا ماهيتها بعد أن حددوها مسبقاً. فالاستفهام هنا وسيلة لإنكار عبادتهم، والتعجب من استمراره. وأتبع الاستفهام باستفهام آخر: (أَفُكَّا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)، وهنا عدّها «إفكاً»، والإفك: «قلب الشيء وصرفه عن وجهه» (ابن فارس، ٢٠١٢م: مادة: أَفَكَ). وهو بذلك ينفي عن آلهتهم أحقية العبادة ويثبتها لله عز وجل.

وبرغم التوتر الشديد بينه وبينهم، إلا إنه مازال متمسكاً بإيصال دعوته، وبيّن لهم أن العبادة الحق لله وحده، وهنا يوجه إليهم استفهاماً ثالثاً في قوله: (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، يُعْرَضُ فِيهِ بِعَلَاقتهم بالله سبحانه وتعالى، «على جهة التوبيخ والتحذير والتوعّد والتهديد» (أبو حيان، ٢٠٠٥م: ج ٩، ص ١١٠).

ولم يجيبوا عن أي استفهام من هذه الاستفهامات المتتالية الموجهة إليهم؛ لأنهم قد أدركوا إنه إنما يريد التعريض بالهتهم، وتوبيخهم وتعنيفهم على الميل عن عبادة الله سبحانه وتعالى، ولما وجد أن الحجة القولية لن تجدي نفعا معهم، اتجه إلى الحجة الفعلية؛ ليبين لهم عدم أهلية أصنامهم للعبادة، فحطمها ليستشعروا عدم قدرتها على رد الأذى عنها، وترك كبيرها لعلهم يسألونه عما حدث، وقد وجه الاتهام إليه؛ ليدركوا إنه لا يملك القدرة عن الدفاع عن نفسه بالقول فضلاً عن الفعل.

والملاحظ إنه قد خاطب الأصنام بقوله: (أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطُقُونَ)، مع علمه بأنها لا تجيب، ولا تملك القدرة على النطق والسمع، والقوم لم يكونوا حاضرين ليسمعوا كلامه ولعل هذا -والله أعلم- تعبير منه -عليه السلام- لمقته لهذه الأصنام، وتضجره من وجودها وتعظيمها بالتوجه بالعبادة دون الله تعالى. وقد قدّموا لها أصناًفاً من الطعام، فلم تتمكن من تناوله، وعندما «عرض عليها الطعام استهزأً ومقتاً» (الزمخشري، ٢٠٠١م: ج ٤، ص ٥١)، لم ترد عليه ولم تنطق.

وبعد أن أقبلوا إليه يزفون، وجه إليهم استفهاماً، (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)، يعنفهم به، وهذا الاستفهام متناسب مع تحطيمه للأصنام،

إذ يذكرهم إنها عبارة عن منحوتات قد تم تحطيمها، كما يذكرهم بأصلها، وإنهم هم من أوجدها، وليست هي من أوجدتهم، وقد تركوا عبادة من كان له فضل خلقهم وإيجادهم، فالإله الحق هو المتفضل على عابده بالإيجاد وليس العكس. وهنا نتظافر الحجة الفعلية (تحطيم الأصنام)، والحجة القولية (توجيه الاستفهام عن التوجه إليها بالعبادة وإلزامهم بالحجة). و عوض أن يؤثر فيهم ما بذله من حجج فعلية وقولية، لم يردوا على كلامه، ولم يدخلوا في خطاب معه، وإنما تكلموا عنه بضمير الغيبة معلنين عقابه والانتقام منه (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ).

وأخيرًا يمكن القول إن المشاهد القرآنية التي تم عرضها، قد أكدت على دور الاستفهام وأثره البارز في المقامات التي تتخذ طابع التلطف بالمخاطب، وكذلك في المقامات التي تتسم بالتوتر بين طرفي الخطاب، وهو من الأساليب التي بإمكان محلل الخطاب الاعتماد عليها في الكشف عن طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب.

الخاتمة

لقد تبين من خلال هذا البحث:

- أن القدماء -في حديثهم عن أغراض الاستفهام- قد أشاروا إلى استعمال الاستفهام في المقامات التي تتسم بالعلاقات الإيجابية بين طرفي الخطاب وكذلك المقامات التي تتسم بالتوتر والمواجهة بينهما.
- استُعمل في القرآن الكريم في مقامات تتنوع فيها العلاقات بين أطراف التخاطب حيث تتسم بالانسجام والإيجابية في مواضع، بينما تتصف بالتوتر والتنافر في مواضع أخرى.
- للاستفهام دور بارز في النوعين من المقامات فقد استُعمل في إثبات الحجة وتوبيخ المخاطب وتقريعه، كما استُعمل في التلطف والترفق به والأخذ بيده برفق ولين.
- يتميز الاستفهام بمزايا وسمات تخاطبية تجعل المخاطب يؤثره على غيره في مقامات بعينها في ضوء علاقته بالمخاطب.
- للاستفهام دور بارز في الكشف عن طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب سلبيًا أو إيجابًا، حيث يمكن اعتباره أحد أساليب التصوير الفني في القرآن الكريم.
- الاستفهام من الأساليب التي لا غنى لمحلل الخطاب من الاستناد عليها في دراسته للعلاقات بين أطراف الخطاب.

المراجع والمصادر:

- ١- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (١٩٥٤م). المنصف، «شرح كتاب التصريف لأبي عثمان المازني». تحقيق: إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين. (ط١). مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر.
- ٢- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم. (د.ت). ملاك التأويل القاطع بنوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل. تحقيق: عبد الغني محمد علي. (د.ط). دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ٣- ابن عاشور، محمد الطاهر. (د.ت). التحرير والتنوير. (د.ط). دار سحنون، تونس.
- ٤- ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (٢٠١٢م). مقاييس اللغة. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. (ط١). شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.
- ٥- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد. (١٩٩٨م). لسان العرب. (ط١). دار صادر، بيروت، لبنان.
- ٦- ابن الناظم، بدر الدين بن مالك. (د.ت). المصباح في المعاني والبيان والبديع. (د.ط). تحقيق: حسني عبد الجليل يوسف. مكتبة الآداب، القاهرة، مصر.
- ٧- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، (٢٠٠٥م)، البحر المحيط في التفسير. (د.ط). دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٨- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى. (٢٠١١م). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم؛ تفسير أبي السعود، تخريج: محمد صبحي حسن، (ط١). دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ٩- الإسكافي، عبد الله بن محمد بن عبد الله. (٢٠١٤م). درة التنزيل وغرة التأويل.

تحقيق: سامي عبد الفتاح. (ط١). دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر.

١٠- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. (٢٠١٣م). معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. (ط٤)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١١- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم. (٢٠١١م). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، (ط٤)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٢- التفتازاني، سعد الدين بن مسعود. (٢٠٠٣م). مختصر السعد. تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (ط١)، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان. و(١٣٣٠هـ). و المطول في شرح تلخيص المفتاح. بدون تحقيق، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر.

١٣- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل. (١٩٩٩م). فقه اللغة وأسرار العربية. تحقيق: ديزيرة سقال، (ط١). دار الفكر العربي، بيروت، لبنان.

١٤- الجابرية، منى سالم عامر. (٢٠١٧م). الاستفهام في القرآن الكريم بين التأثير والتأثير. (ط١). نشر مشترك بين دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ومكتبة وتسجيلات الطلائع، إبراء، سلطنة عمان.

١٥- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. (١٩٩٢م). دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر. (ط٣). مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ودار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية.

١٦- الجرجاني، علي بن محمد بن علي. (١٩٩٦م). التعريفات. تحقيق: عبد الرحمن عميرة، (ط١). عالم الكتب، بيروت، لبنان.

١٧- الخليل، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي. (د.ت). العين. تحقيق: هادي حسن حمودي، (د.ط)، وزارة التراث، مسقط، سلطنة عمان.

١٨- الرازي، فخر الدين بن عمر بن الحسين بن الحسن. (د.ت). مفاتيح الغيب؛ التفسير الكبير، تحقيق: عماد زكي البارودي. (د.ط). المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.

١٩- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. (د.ت). المفردات في غريب القرآن. تحقيق: محمد سيد كيلاني، (د.ط). دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢٠- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. (٢٠٠١م). الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، (ط٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢١- السبكي، بهاء الدين. (٢٠٠٣م). عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هندراوي. (ط١). المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

٢٢- السكاكي، أبو يوسف يعقوب بن يوسف. (١٩٨٧م). مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور. (ط٢). دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٣- سيبويه، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (د.ت). الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (ط١)، دار الجيل، بيروت، لبنان.

٢٤- العلوي، يحيى بن حمزة، (١٩٨٠). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٥- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. (١٩٩٨م). القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة. (ط٦)، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٢٦- القزويني، الخطيب جمال الدين أبو المعالي. (١٩٩٣م). الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي. (ط٣). المكتبة الأزهرية للتراث،

القاهرة، مصر.

٢٧- المطعني، عبد العظيم. (٢٠١١م). التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، (ط٣). مكتبة وهبة، القاهرة، مصر.

٢٨- يوسف، عبد الكريم محمود. (٢٠٠٠م). أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم؛ عرضه-إعرابه، (ط١). مكتبة الغزالي، دمشق، سوريا.